الدكتورة دلال عباس

حول أمّيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى كلمة "الأمّيّ" التي وصفَ القرآن النبيَّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بها ، وكلمةَ الأمّيّين التي وصفَ بها العرب؟ معظم التفاسير – وكذلك المعاجم اللغوية– تفسّر كلمة "الأمّيّ" بأنّه الذي "لا يقرأ ولا يكتب"، ويعقّب بعضُها بأنّه "الذي لا يقرأ الكتاب". وفي بعض التفاسير الحديثة، إشارة إلى نسبتها إلى "الأمم". وقد ذكرت التفاسير، نقلاً عن الرواة السابقين أو عن الشروح السالفة، أنّ المقصود بالأمّيّين هو العرب الذين "لا يقرأون الكتاب ..المقدّس".

يهدف هذا البحث . بعد دحضِ رأيِ الذين يذهبون إلى أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ قبل نزول الوحي . إلى الإجابة عن هذا السؤال : ما المقصود بالأمّيّ في القرآن الكريم وهل اللفظة منسوبة إلى الأمّ أم إلى الأمّة ، أم إلى الأمَة؟ وهل لذلك عَلاقة بأمّيّة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعدمِ معرفتِه ومعرفةِ قومِه القراءةَ والكتابةَ؟ والإجابة كذلك عن الأسئلة المتفرّعة عن هذا السؤال المحوريّ ؛ وذلك من خلال استقراء النصّ القرآنيّ ، لا سيّما الآيات التي وردت فيها لفظة الأمّيّ صفةً للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أو لفظة الأمّيّين التي جاءت على لسان اليهود صفةً للعرب , والأحاديث النبويّة ، وآراء المفسّرين والباحثين، لتوضيح المقصود من اللفظتين؛ لا سيّما وأنّ المنطق والواقع التاريخي يُبيّنان أنّ العربَ لم يكونوا جميعَهم يجهلون القراءة والكتابة، ولا كان اليهودُ كلّهم يحسنونَهما.

الكلمات المفتاحيّة: القرآن؛ النبيّ الأمّيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ الأمّيّون؛ العرب؛ اليهود.

مقدّمة عامة

ما معنى لفظة الأمّيّ الواردة في النص القرآنيّ بالمفرد صفةً للنبيّ، وبالجمع صفةً للعرب؟

لغويًّا: قال ابن منظور: الأمّيّ الذي لا يكتب، ونقل عن الزجّاج قوله: الأمّيُّ الذي على خِلْقَةِ الأُمّةِ لم يتعلَّم الكتاب فهو على جبلَّتِه... ونَقل عن ابن إسحَاق قولَه: معنى الأمّيّ المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه أي لا يكتبُ، فهو في أنَّه لا يكتبُ أمّيّ لأنّ الكتابةَ هي مكتسبةٌ، فكأنّه نُسِب إلى ما يولدُ عليه، أي على ما ولدَتْه أمُّه عليه، وكانتِ الكُتّابُ في العربِ من أهلِ الطائفِ تعلَّموها من رجلٍ من أهلِ الحِيرَةِ، وأخذها أهلُ الحيرةِ عن أهلِ الأنبار؛ وأوردَ ابن منظور أيضًا الحديث: " إنّا أمّةٌ أميّة لا نكتُبُ ولا نحسُبُ"؛ أرادَ أنّهم على أصلِ ولادة أمّهِم، لم يتعلَّموا الكتابةَ والحساب، فهم على جبلَّتِهم الأولى؛ والحديث: " بُعثتُ إلى أمَّةٍ أمّيّةٍ"؛ وقال ابن منظور: قيل للعرب الأمّيّون لأنّ الكتابةَ كانت فيهم عزيزةً أو عديمة... وقيل لسيّدنا محمّدٍ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأمّيّ لأنّ أمَّةَ العربِ لم تكن تكتبُ ولا تقرأ المكتوبَ، وبعثَه الله رسولًا وهو لا يكتبُ، ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخَلَّةُ إحدى آياته المُعجزةَ لأنّه، صلّى الله عليه و آله وسلم، تلا عليهم كتابَ الله منظومًا، تارةً بعد أخرى بالنظم الذي أُنزِلَ عليه، فلم يُغيّرهُ، ولم يبدّل ألفاظَه، وكان الخطيبُ من العربِ إذا ارتجلَ خطبةً ثمَّ أعادها زاد فيها ونقصَ، فحفظه الله على نبيّه كما أنزله وأبانه من سائرِ من بعثَه إليهم بهذه الآية التي بايَنَ بينه وبينهم بها، ففي ذلك أنزل الله تعالى : " وما كنت تتلو قبلَه من كتابٍ ولا تخطّه بيمينِك، إذًا لارتابَ المُبطِلونَ الذين كفروا، ولقالوا إنّه وجدَ هذه الأقاصيصَ مكتوبةً فحفظها من الكتُب".[1]

وتفاسير القرآن – كالمعاجم اللغويّة– تفسّر كلمة "الأمّيّ" أولًا بأنّه الذي "لا يقرأ ولا يكتب" كما ولدته أمّه نسبةً إلى الأمّ[2]، وثانيًا أنّ صفة الأمّيّ نسبة إلى مكّة لأنّها أمّ القرى، وثالثًا بعضُ التفاسير الحديثةِ مثل " في ظلال القرآن" و"الميزان" على سبيل المثال، تُشير فضلًا عن

[1] ابن منظور، لسان العرب، ط. صادر، ج ١٢، مادة أمم، ص٣٤

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٣٨١، وج ٣، ص ١٣٧٨-١٣٧٩ وج ٦، ص ٣٥٦٤؛ مغنية، التفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٣، وج ٢، ص ٣٠؛ الطباطبائي، الميزان، ج ١٠، ص ٢٦٤؛ فضل الله، من وحي القرآن، ج ٢٢، ص ٢٠٥.

النسبتين السابقتين إلى نسبةِ اللفظةِ إلى "الأمم"[3] ، وأحد المؤرخين يقول: إنّ العربَ وُصِفوابصفةِ " الأمّيّين" نسبةً إلى الأمَةِ [الجارية] هاجر أمّ إسماعيل عليه السلام جدّ العرب.

إذًا هنالك من سمّى العربَ «الأمّيّين» قبل البعثةِ وقبلَ نزولِ القرآن؛ من أطلق عليهم هذا الإسم؟

في تفسيره للآية الثانية من سورة الجمعة قال سيّد قطب: " قيل إنّ العرب سمّوا أمّيّين لأنّهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون في الأعمّ الأغلب، ورُويَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: إنّا نحن أمَّةٌ أمّيّةٌ لا نحسبُ ولا نكتب[4]، وتابع سيّد قطب القول: قيل إنّما سُمّيَ من لا يكتب أمّيًّا لأنّه نُسب إلى حال ولادته من الأمّ، لأنّ الكتابةَ، إنما تكون بالاستفادةِ والتعلّم؛ وربّما سمّوا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم إنهم جوييم باللغة العِبريّة أي أمّيّون، نسبة إلى الأمم – بوصفهم هم شعبُ الله المختار وغيرهم هم الأمم– والنسبة بالعربيّة إلى المفرد، أمّة أمّيّون، ويرى سيّد قطب أن هذا ربّما كان أقرب إلى موضوع السورة.[5]

وفي تفسيره للآية الثانية من سورة الجمعة قال العلامة الطباطبائي: " الأمّيون جمع أمّيّ وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب والمراد بهم –كما قيل– العرب لقلَّة من كان منهم يقرأ ويكتب، وقد كان الرسولُ منهم أي من جنسهم، وهو غير كونه مرسلًا إليهم، فقد كان منهم وكان مُرسلاً إلى الناسِ كافةً، واحتُملَ أن يكونَ المراد بالأميّين غير أهل الكتاب كما قال اليهود –على ما حكى الله عنهم :{ ليس علينا في الأمّيين سبيل} [6]

ومع أن الطباطبائي يتبنى الرأي القائل إنّ اليهود يسمّون غيرهم الأمّيّين، لكنَّه يستبعد المعنى في الآية الثانية من سورة الجمعة، " لأن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، لم يخصّ في

---

[3] سيد قطب ج ٦،ص ٣٥٦٤؛ الطباطبائي، م. ن، ج ١٠، ص ٢٦٤؛ فضل الله، من وحي القرآن، ج٢٢، ص٢٠٥؛ لواساني، نظرات جديدة في تاريخ الأدب، ط ٢، ص ٣٣٢.

[4] سيّد قطب، ج ٦، ص ٣٥٦٤، ذكر سيّد قطب هذا الحديث نقلًا عن الجصّاص صاحب أحكام القرآن، وقال عنه إنّه غير مسند.

[5] م.ن، ص.ن.

[6] آل عمران /٧٥

أوّل الدعوة غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يُلقِه إليهم، ولا منافاة بين كونه من الأميّين [العرب] مبعوثًا فيهم، وبين كونه مبعوثًا إليهم وإلى غيرهم وهو ظاهر، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتابَ والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أوّل مراحل دعوته، ولمّا استقرّت الدعوةُ بعضَ الاستقرار، أخذَ يدعو اليهودَ والنصارى والمجوسَ وكاتبَ العظماءَ والملوك.[7]

إذًا هنالك ثلاثة آراء حول معنى لفظة الأمّيّ، التي لا تناسبُ الرسول إلّا لكونه واحدًا من العربِ الأمّيّين، أمّا الأمّيّ بمعنى الجهل فلا تنطبق عليه وهو المعصوم؛ الأقرب إلى العقل والمنطق من هذه الآراء الثلاثة، هو أنَّ اليهود هم الذين سمّوا العرب "الأمّيّين"، أمّا الرأي الأوّل الغالب، القائل إنَّ الأمّيّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب كما ولدته أمّه نسبةً إلى الأمّ، إنّما هو تفسير ضعيف ومحدود لا ينسجم مع المنطق ولا مع الواقع التاريخيّ، لأنّ العربَ لم يكونوا جميعًا يجهلون القراءة والكتابة، ولا كان اليهود كلهم يحسنونهما، حتى تجوزَ صفة الأمّيّين بذلك المعنى على العرب و"القارئين" أو "المتعلّمين" على أهل الكتاب، وبالخصوص على اليهود، بل الأرجح أنّ الأكثريّة الغالبة من اليهود في الجزيرة كانت أيضًا تجهل القراءة كبقيّة العرب في المجتمع البدويّ.

يقول إبن خلدون: " إنّ العربَ لم يكونوا أهلَ كتاب ولا علم؛ وإنّما غلبت عليهم البداوةُ والأمّيّة، وإذا تشوّفوا إلى معرفة شيءٍ ممّا تتشوّف إليه النفوس البشريّة في أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهلُ التوراةِ من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراةِ الذين بين العرب يومئذ باديةٌ مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهوديّة".[8]

[7] الطباطبائي، الميزان، ج 10، ص 264.
[8] ابن خلدون ، المقدّمة، ج١، ص٤٣٩.

ووصفهم القرآن بقوله: { ومنهم أميّون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيّ، وإن هم إلّا يظنّون }.[9]

إذًا أهل الكتاب فريقان: فريقٌ أمّيّ جاهل لا يدري شيئًا من كتابهم الذي نزل على نبيّهم، ولا يعرف منه إلا أوهامًا وظنونًا، وإلّا أمانيّ في النجاة من العذاب، بما أنهم شعبُ الله المختار، المغفورُ له كلّ ما يعمل وكلّ ما يرتكب من آثام، وفريقٌ يستغلّ هذا الجهل وهذه الأمّيّة فيزوّر على كتاب الله، ويُحرّف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرِضة، ويكتم منه ما يشاء ويُبدي منه ما يشاء، ويكتب كلامًا من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنّه من كتاب الله؛ لتظلّ لهم السلطة المعنويّة على الآخرين؛ وعلى الرّغم من أنّ أهلَ الكتاب في الجزيرة العربيّة لم يكونوا أوسع ثقافة من العرب، كانوا المرجع الذي يعود إليه العرب المشركون يستفتونهم في شأن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، وكانوا ينظرون إليهم نظرة التلميذ إلى معلمهم، واليهود ينظرون إليهم نظرةَ استعلاء، لأنّهم من نسلِ الأمةِ هاجر.

هل كان العرب وحدهم هم الذين يجهلون القراءة والكتابة ليوصفوا لهذا السبب بأنّهم أمّيّون؟ وهل كانت الشعوب المجاورة والبعيدة، ذاتُ الحضارات العريقة كمصر وبلاد ما بين النهرين وإيران على سبيل المثال أممًا قارئةً كاتبة؟

المؤكّد والثابت تاريخيًّا أن لا.

الناس في تلك الحضارات كانوا طبقتين: الأحرار المتعلّمون والعبيد الأمّيّون. الطبقة الأولى الممتازة تضمّ الحكّامَ أنصافَ الآلهة وكتّابَهم وأطبّاءهم وكهنتَهم، وهؤلاء هم الذين كانوا يتعلمون. أمّا الطبقة الدنيا فتضم العبيد وعامّة الناس من عمّال وجنود ومزارعين يعملون في خدمة المعابد والقصور، وهؤلاء لم يكن يُسمح لهم أن يتعلّموا. كان الاعتقاد السائد في مصر الفرعونيّة أنّ الآلهةَ هي التي علّمت أنصاف الآلهة والكهنةَ الكتابةَ الهيروغليفيّة المقدّسة، وكان محرّمًا على العامّةِ والعبيدِ تعلُّمُها ، والأمرُ نفسه ينطبق علي اللغة المسماريّة في بلاد ما بين

[9] البقرة/ 78.

النهرين، ومشهورةٌ في المصادر الزرادشتيّة والإيرانيّة المختلفة، وفي شاهنامة الفردوسي قصّة الحذّاء الذي قدّم مبلغًا من المال مساهمةً منه في تجهيز الجيش، وطالب أن يُسمح لابنه أن يتعلّم القراءة والكتابة، فسُجن لمجرّد أنّه طلب ذلك .[10]

وكانت صفة العبد تُطلق على أيّ واحدٍ أبواه من عامّة الشعب أو من العبيد حتى وإن كان أبوه حرًّا، وهذا التشريع الذي كان عُرفًا في مصرَ وإيران موجودٌ في المادّة ٢٤٠ من قانون حمورابي.

وفي الجاهليّة كان العرب يتبعون عاداتٍ وأعرافًا غير محدّدةِ المصدر، منها احتقارهم أبناءَ الإماء، ومعروفةٌ قِصّةُ عنترة...

النتيجة أنّ كلّ حرٍّ في هذه المجتمعات هو متعلم، وكل متعلّم حرّ، وكلّ عبدٍ أمّيّ وكلّ أمّيٍّ عبد.

ولمّا نزلت الدعوة كان الناس في الجزيرة العربية طبقتين: أهلُ الكتاب المتعلمون، والذين لا كتاب لهم الأميّون. ومن الطبيعي أن تكون صفة الأمّيين، هي الصفة التي أطلقها أهلُ الكتاب على العرب الذين ليس لهم كتاب، حتى وإن كان بعضُهم يعرفُ القراءة والكتابة.

قال المفسّرون كذلك، إنّ صفة الأمّيّ والأمّيين نسبةً إلى مكّة: أمّ القرى اعتمادًا على قوله تعالى : { وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } .[11]

قيل:" سُمّيت مكّة بهذا الإسم، لأنّها قِبلةُ أهل القرى وحجُّهم، وهم يتجمّعون عندها تجمُّعَ الأولاد عند الأمِّ المشفقة، ويعظّمونها أيضًا تعظيمَ الأمّ، ولأنّها أعظمُ القرى شأنًا، فغيرُها تبَعٌ لها كما يتبعُ الفرعُ الأصلَ. وقيل: لأنّ الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها فكأنّها خرجت من تحتها كما يخرج الأولاد من تحت الأمّ، أو لأنّها مكانُ أوّلِ بيتٍ وُضِع للناس".[12]

---

[10] مطهري، مرتضى، الإسلام وإيران، ص ٢٤٤_ ٢٤٦.

[11] الأنعام/٩٢.

[12] داود، المعجم الموسوعي للتعبير الاصطلاحي في اللغة العربيّة، القاهرة، ط ١، ١٤٣٥/ ٢٠١٤، ج ١ذ، ص ٢٥١.

وجاء في معجم البلدان: " أم القرى: من أسماء مكّة؛ قال نفطَوَيه: سُمِّيت بذلك لأنّها أصل الأرض، منها دُحيَت، وفَسّر قوله تعالى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[13]، على وجهين: أحدها أنّه أراد أعظمَها وأكثرها أهلًا والآخر أنّه أراد مكّة؛ وقيل سُمّيت مكّة أمّ القرى لأنّها أقدمُ القرى التي في جزيرة العرب وأعظمُها خطرًا، إمّا لاجتماع أهلِ تلك القرى فيها كلّ سنة، أو انكفائهم إليها وتعويلهم على الاعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله تعالى؛ وقال ابن دُرَيْد: " سُمّيت مكّة أمّ القرى لأنّها توسّطت الأرض، والله أعلم؛ وقال غيرُه: لأنّ مجمع القرى إليها؛ وقيل بل لأنّها وسط الدنيا، فكأنّ القرى مجتمعة عليها؛ وقال الليث: كلّ مدينة هي أمّ ما حولها من القرى؛ وقيل سُمّيَت أم القرى لأنّها تُقصدُ من كلّ أرضٍ وقرية" .[14]

إنّ نسبة "الأمّيّ" إلى أمّ القرى غير صحيحة لغويًّا، لأنّ النسبة لا تعود إلى الجزء الأوّل من الاسم المركّب وحده، فضلاً عن أنّ تفسير عبارة أمّ القرى أنها «مكّة» حصرًا يدحضه قولُه عزّ وجلّ: { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[15]، فالمقصود بأمّ القرى هنا المعنى العام أي البلد الكبير أو العاصمة، وكلّ مدينةٍ أو قريةٍ كبيرة. هي أمّ ما حولها من القرى[16]. ومكّة إسلاميًّا لم تكن أرفع من يثرب التي احتضنتِ الدعوة، ولا أهمّ وأرفع قيمةً من جُلّق أو الحِيرَة، والنبيّ لم يُبعث إلى قريش فقط، ولا إلى أهل مكّة وحدهم. وورد في القرآن في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[17]، وقوله عزّ وجلّ (فيهم) أي في آل إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكّة

[13] القصص/٥٩

[14] الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لا تا، ج١، ص ٢٥٤.

[15] القصص/٥٩

[16] ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٢.

[17] البقرة/ ١٢٩

وغيرهم؛ فضلاً عن كون النبي محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم مبعوثًا إليهم وإلى الناس جميعًا كما تُقرّر الآيات كلُّها" .[18]

نعود إلى أهل الكتاب الذين ميّزوا أنفسَهم من غيرهم { ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[19]. من من أهل الكتاب كان يقول ذلك؟

إنّ فكرة وجود شعب متميّز يفضُل غيره، فكرة نجدها في اليهوديّة دون الديانات الأخرى. لعلّ أتباع كلّ دينٍ أو ديانةٍ يرون أنّ دينهم _كدين_ هو الحقّ، وهو الأصوب، ولكنّ فكرة أنّ الله يميّز جنسًا بشريًّا _كجنسٍ_ ويفضّل شعبًا من الشعوب، فيقفه على نفسه ويجعله شعبه المختار، فلا نجد مثلها إلّا عند اليهود وحدهم: "إنهم يؤمنون أنّ الفرق بين الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب"[20]. وهذا التفسير ناتج عن تكرار عبارة "الشعب المختار" في العهد القديم، التي فسّرها اليهود بأنّ الله اختارهم كجنس _ لا كأتباع دين _ شعبًا خاصًّا به وحده[21]، فالناس في نظر اليهود درجتان: الدرجة الأرفع اليهود، والدرجة الأدنى باقي الناس، أو "الأمم" [الشعوب الأخرى] وغير اليهود حيوانات خلقها الله على صورة الإنسان لتخدم شعب الله المختار، والخارجون عن دين اليهود سرقتُهم جائزة وغشّهم والكذب عليهم مسموح به ، والربا من أموالهم جائز بل مفروض، وعدم وفاء ديونهم لا مسؤوليّة فيه، إلى أمثال هذه التعاليم التي تنضح بالحقدِ وكرهِ البشر والقسوةِ عليهم .[22]

أمّا في العهد القديم فإننا نجد مثالاً لجواز سرقة اليهود للأمم الأخرى، وعدم إرجاع أماناتهم في سِفر الخروج .[23]

---

[18] الطباطبائي، الميزان، ج ١٠، ص ٢٦٤

[19] آل عمران/٧٥

[20] نصرالله، يوسف حنا، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ط ٢، ص ٦٧.

[21] لواساني، نظرات في تاريخ الأدب، ص ٣١٠، نقلاً عن سفر الخروج (٥:١٩)، سفر أشعيا (٢٠:٤٣)، تحقيق اليازجي.

[22] الكنز المرصود، ص ٦٦_ ٨٣.

[23] سِفر الخروج، (2:11) و (12- 35- 37).

في القرآن الكريم آيات عديدةٌ تناقش معتقدات اليهود العنصريّة وتسفّهها، ممّا يدل بصورةٍ لا تدعُ مجالاً للشك على أنّ اليهود كانوا يقولون بهذه المعتقدات في عهدِ الرسول. فادعاؤهم الأفضليّة من حيث العنصر واضحٌ في الآية الكريمة: { قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[24]. وأمّا غشّ الآخرين والتظاهر أنّهم منهم لإفسادهم فبيّنٌ في الآية الكريمة: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.[25]

وأمّا تجويزهم لأنفسهم عدم ردّ أمانات أبناء الأمم والشعوب لأنّهم في اعتقادهم لا ذمّةَ لهم ولا حقّ وفاء على اليهوديّ فواضحٌ في الآية الكريمة: { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[26]. وعبارة " ليس علينا في الأميّين من سبيل" توضّح بجلاء أنّ سبب هذا الموقف إنّما هو المبدأ التلموديّ الذي يحصر الوفاء بالديون لليهود، أمّا الأميّون، أي غير اليهود، فليس على اليهود سبيلٌ فيهم، أي لا حقّ على اليهود تجاههم، ولا مسؤوليّة عليهم نحوهم.

نجد في العهد القديم مثالاً لجواز أن يسرق اليهود "الأمم" [جوييم: مفردها جوي التي تعني شعب أو قوم] وأن لا يُرجِعوا إليهم آماناتهم في سِفر الخروج، حيث يأمر موسى اليهود قبل مغادرتهم مصرَ سرًّا بأن "يطلب الرجل من صاحبه والمرأةُ من صاحبتها أمتعةَ فضَّةٍ وأمتعةَ ذهبٍ"[27] ليأخذوها معهم في مغادرتهم البلادَ سلبًا وسرقة[28]. لذلك نرجّح أن تكون لفظة "الأمّيين" الواردة في "ليس علينا في الأمّيين سبيل" وفي خمسة مواقع أخرى غيرها في القرآن الكريم تارةً بالجمع وتارةً بالمفرد، هي تعريب لفظة جوييم العبريّة بمعنى غير اليهود، ويهود الحجاز هم

---

[24] الجمعة/٦

[25] آل عمران/ ٧٢

[26] آل عمران/ ٧٥

[27] سفر الخروج (٢:١١).

[28] م.ن، (١٢: ٣٥-٣٧).

الذين أطلقوها قبل نزول الوحي على العرب، أمّا شرح "الأمّيين" في التفاسير بأنهم العرب، مع أن المفروض أن يكون جميع الذين ليسوا يهودًا "أمّيين"، لا العرب وحدهم، فلأنّ المجتمع الحجازيّ آنئذٍ، لا سيّما مكّة ويثرب، لم يكن يضمّ إلّا يهودًا وعربًا، أو كثرة ساحقة من العرب بإزائهم، فانحصرت الصفة في ذلك المجتمع بالعرب، وغلبت صفة الكثرة، فصارت صفة المجموع، تمامًا كما غلبت مع الزمن في أذهان العامّة صفةُ "العجم" للفرس، مع أنّ الفرس في المجتمع الإسلاميّ كانوا يشكّلون الكثرة الكاثرة الساحقة من العجم إزاء العرب، فغلبت صفتُهم على المقصود من الاسم .[29]

ويُظهر القرآن عقيدة أخرى كان اليهود يعتنقونها أو يبشّرون بها عند ظهور الإسلام، هي أنّ الأنبياء والرسل يجب أن يكونوا من بني إسرائيل وحدهم. أمّا الأغيار الأميّون غير اليهود فلا يظهر فيهم رسلٌ أو أنبياء، وبذا يُكذّبون نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم، لأنّه ليس من بني إسرائيل، لذلك قال تعالى في سورة الجمعة: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[30]. والظاهر أنّ هذه العقيدة قد تأثّر بها العرب "الأمّيون" أنفسُهم، ورأوا أنّ هذه الكرامة خاصّة باليهود وحدهم، لذا نراهم يعجبون من ظهور رسولٍ فيهم وهو ما يبدو واضحًا في قوله تعالى: { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ }[31] {وعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}[32]. و { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ..}.[33]

هنالك رأيٌ قد تفرّد به المؤرخ علي غندور ليس بعيدًا من المنطق، في محاضرةٍ له مطبوعةٍ مع محاضرات أخرى، تناول فيها موضوع أمّيّة النبيّ، قال فيها بعد أن تحدّث عن

---

[29] لواساني، م.س، ص ٣٣٣.
[30] الجمعة/٢
[31] ق/ 2.
[32] ص/ ٤.
[33] يونس/ 2.

النظام الطبقيّ الذي يميّز بين الأحرار والعبيد ما مفاده أنّ اليهود هم الذين وصفوا العرب بهذه الصفة، لأنّهم من نسل يعقوب بن إسحاق، ابن الحرّة سارة، في حين أنّ العرب هم من نسل إسماعيل ابن الأمّة ،أو الأَمَة هاجر. ونسل يعقوب هم الذين عُرفوا بأنّهم "أهل الكتاب" . فالنبوّة قد حُصِرت فيهم، حتى المسيح ابن مريم يعود من جهةِ أمّه إلى إسحق؛ والنسب عند اليهود يعود إلى الأمّ لا إلى الأب؛ لقد احتقر اليهود البشر جميعًا من غير اليهود، لكنّ حقدهم على أبناء الأمَة العرب كان أكبر، حتى أنّ العهد القديم يخلو من أيّ ذكر لِنسل إسماعيل، في حين إنّه حافلٌ بأخبار إسرائيل أي يعقوب بن إسحاق ابن سارة. ويصل في النهاية إلى هذه النتيجة: " بعد ما ذكرته، أحصرُ لقب الأميّ والأمّيّين كصفة لنسل إسماعيل ابن الأمّة ولفظةَ أمّيّ مشتقة من لفظة "أمّة" أي جارية، ويلفظها العرب أَمَة [أَمَةُ الله]، وبحسب العرف القديم الذي كان يحرم أبناء العبيد والإماء من التعلّم، يصبح العبد أمّيًّا نسبة إلى أمّه الأمَة، والصفة امتداد للتمييز الطبقي والعنصري الذي تميّز به أبناء الستّ من أبناء الجارية؛ وقد ألغى الله عزّ وجلّ هذا التمييز الطبقي، فبعث من نسل إسماعيل رسولاً ودعا أهل الكتاب [نسل الحرّة] والأمّيّين [نسل الأمّة] ليؤمنوا به .[34]

هل كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أميًّا بمعنى جهل القراءة والكتابة؟

المفسّرون متّفقون أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قبل البعثة لا يعرف القراءة والكتابة كالعرب قومه الذين كانوا كما تذكر المصادر أمّيين لا يعرفون القراءة والكتابة، إلّا من شذَّ منهم، حتى ليُذكر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أرسل رسالةً إلى قبيلة بكر بن وائل، فلم يجدوا قارئًا لها في القبيلة كلّها، وقرأها لهم رجلٌ من بني ضبيعة، فهم يسمّون: بني الكاتب[35]. وعن ابن عبد ربّه أنه قال : " وجاء الإسلام وليس أحدٌ يكتبُ بالعربيّة غير سبعةَ عشرَ إنسانًا، ثمّ عدّهم فذكر عليًّا عليه السلام أوّلاً، ويُلاحظ من أسمائهم أنّ أكثرهم قد تعلّمها

---

[34] غندور، علي زين، كنوز الذاكرة، ط ٢٠١٤، ص ٢٨- ٤٠. ط. طرطوس، ص ٥٨- ٦١.

[35] مرتضى، السيرة،النبويّة مج ٣، ص ٢٥ نقلاً عن مجمع الزوائد، ج ٥، ص ٣٥، وكشف الأستار عن مسند البزّار، ج ٢، ص ٢٦٦، و المعجم الصغير، ج1، ص ١١١.

بعد ظهور الإسلام، وذِكْرُ اسم عليٍّ عليه السلام يدلّ على ذلك[36]. ويؤكّد هذا الأمر قولُه عزّ وجلّ {مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } .[37]

معجزة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قرأ وكتب بعد البعثة. لكنّ عددًا من العلماء الغربيين قالوا إنّ النبيّ كان يقرأ ويكتب قبل البعثة وإنّ ما في القرآن من قصص الأنبياء الأوّلين وأخبار الماضين دليلٌ على أنّ محمّدًا كان يقرأ الكتب القديمة[38]. وهدفُهم المباشر وغيرُ المباشر إنكارُ الوحي؛ وقد قلّدهم في ما قالوه بعضُ العرب والمسلمين، ومنهم معروف الرصافي الشاعر المعروف في كتابه

" الحقيقة المحمّديّة"

يقول الرصافي في مقطع بعنوان: العرب أمّيّون ومحمّدٌ منهم:

"كلّ ما في القرآن من قصص الأنبياء الأوّلين وأخبار الماضين ممّا هو مسطورٌ في التوراة وغيرها من الكتب القديمة يدلُّ على أنّ محمّدًا كان على علمٍ بأخبار الأمم الماضيَة، ومعنى ذلك أنّه كان يقرأ الكتب القديمة، فيصحّ أن نستدلَّ بما جاء في القرآن من القصص والأخبار على أنّ محمّدًا كان يُحسن القراءة والكتابة، ولكنْ للمؤمن المتديّن أن يعترض علينا فيقول إنّ محمّدًا لم يسبق له علمٌ بأحوال الأمم الماضية، وإنّما جاء بهذه القصص وهذه الأخبار عنهم بوحيٍ أوحاه الله إليه بواسطة جبريل، فاستدلالكم بها على أنّه كان يُحسن القراءة والكتابة غير صحيح"، وفي ردّه على اعتراض المؤمنين بالوحي يقول الرصافي إنّ لمحمد (ص) كلامًا خارجًا عن دائرة الوحي النازل به جبريل، و ليس كلّ كلامه من الوحي النازل به جبريل"[39] ؛ وفي تعليله لمصطلح الأمّيين وصفًا للعرب، قال الرصافي منطلقًا من تخرّصاته التي ينتقص فيها من قيمة الوحي، .." فمحمّدٌ لمّا قام بالدعوة إلى الإسلام أراد أن يميّز في كلامه بين الأمّة التي

---

[36] مرتضى، م.ن، ص.ن، نقلاً عن فتوح البلدان، ط أوروبا ص ٤٧١ وما بعدها وص ٨٠ في القسم الثالث من الطبعة التي حقّقها صلاح الدين المنجّد.

[37] العنكبوت/ ٤٨

[38] ياسين، الشيخ خليل، محمد عند علماء الغرب، ص ٧١_ ٧٤.

[39] الرصافي، الحقيقة المحمدية ،ص ١٦٦ وص ١٤٥_ ١٦١.

لها كتاب والأمّة التي ليس لها كتاب، فسمّى العرب بالأمّيين، وأراد بذلك أنّهم أمّةٌ ليس لها كتابٌ منزّلٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ليذكرهم في مقابلة الكتابيّين، ولم يُرِد في هذه التسمية أنهم لا يقرأون ولا يكتبون، لأنّ فيهم من يُحسن القراءة والكتابة، وإنْ كان أكثرهم لا يُحسِنُها.

ويقول: لقد استعمل [قصده النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم] الأمّيين بهذا المعنى في آية جاءت في سورة آل عمران وهي: { قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ }[40]، وأراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، وبالأمّيين العرب لأنّهم لا كتاب لهم، لا لأنّهم لا يحسنون القراءة والكتابة... وجميع الأمم في ذلك الزمان كانوا كالعرب لا يعرفون القراءة والكتابة، لأنّ القراءة والكتابة في ذلك الزمان كانت محصورة في طبقة خاصّة من الناس، والذين يقرأون ويكتبون كانوا يُعَدون بالأصابع في كلّ أمّةٍ من أمم ذلك العهد، فالصحيح هو أنّه سمّى العرب أمّيين لأنّهم ليسوا أهل كتابٍ، أي ليس لهم نبيٌّ مرسل ولا كتابٌ منزل. وبهذا المعنى محمّدٌ أمّيٌّ أي منسوبٌ إلى أمّةٍ ليس لها كتاب، لا بمعنى أنّه لا يقرأ ولا يكتب كما جاء في سورة الجمعة { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[41]، أي رسولاً أمّيًّا منسوبًا إلى أمّة العرب التي هي أمّة ليس لها نبيٌّ مرسل ولا كتابٌ منزّل .[42]

المأخذ على كلام الرصافيّ نسبته الكلام إلى النبيّ لا إلى الوحي، ثم يقول: " أمّا الأمّي في اللغة فهو الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، وهو منسوبٌ إلى الأمّ لأنّ الكتابة مكتسبة، فكأنّه على ما وُلدَ عليه من الجهل بالكتابة، ولكنّ العرب لمّا كانوا ليسوا أهل كتاب يرجعون إليه في ديانتهم، اصطلح محمّد[هكذا] على تسميتهم بالأمّيين لأنّهم بمنزلة الأمّيّ بالمعنى اللغويّ باقون على ما ولدوا عليه من الجهل بالكتاب والدين، فالأميّ بالمعنى اللغويّ نسبة إلى الأمّ، والأمّي بالمعني الاصطلاحيّ نسبة إلى الأمّة أي إلى العرب. وقد استعمل محمّد [هذه عبارة

---

40 آل عمران/ ٢٠

41 الجمعة/٢

42 الرصافي، الحقيقة المحمّدية، ص ١٦٧.

الرصافيّ حرفيًّا] الأمّي بالمعنى اللغويّ في القرآن أيضًا، حيث قال عن اليهود: { مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } .[43]

ونقل الرصافي من "السيرة الحلبيّة"] لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد ابن سيد الناس الشافعي (671 – 734 هـ) [رواياتٍ تصرّح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقرأ ويكتب أيضًا، قبل الدعوة لكنّ الردّ على هذه الادّعاءات بسيط جدًّا، لأنّ الأمر بالقراءة قد جاء إلى النبيّ منذ بداية نزول الوحيّ، ذلك أنّه قرأ وكتب حين وبعد نزول الدعوة، وتلك معجزة.

أمّا الرواية التي اعتمد عليها الرصافيّ، فقد تكرّرت من قبل في ما كتبه الغربيون [44]، وقد أورد خليل ياسين أقوالهم تلك مفصّلةً .

وليؤكّد الرصافيّ ما قاله عن أنّ النبيّ (ص) كان يُحسن القراءة والكتابة، اعتمد على الروايات نقلاً عن السيرة الحلبيّة التي تروي ما وقع يوم صلح الحديبيّة، وأنّ محمّدًا (ص) لمّا أمر عليًّا بن أبي طالب عليه السلام أن يكتب كتاب الصلح بينه وبين سهيل بن عمرو الذي فوّضَت إليه قريش أمرها حين أرسلته إلى النبي (ص)، جعل يُملي عليه وهو يكتب، فقال له: اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سهيلاً بن عمرو، فقال سهيل لو شهِدتُ أنّك رسول الله ما خالفتك، أفترغبُ عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبدالله، فقال رسول الله: إمحُ "رسول الله"، فقال عليّ: والله لا أمحوك أبدًا، فقال: أرنيه، فأراه إيّاه فمحا عبارة "رسول الله" بيده، وقال لعليّ: اكتب هذا ما صالح عليه محمّدٌ بين عبدالله سهيل بن عمرو، فجعل عليّ يتلكأ ويأبى أن يكتب إلّا "محمّد رسول الله"، فأخذ رسول الله الكتاب بيده، فكتب هذا ما قاضى عليه محمدٌ بن عبدالله .[45]

---

[43] البقرة/٧٨

[44] ياسين خليل، محمد عند علماء الغرب، ص ٧١_٧٤.

[45] الرصافي، ص ١٩٨ نقلاً عن السيرة الحلبيّة، ج٣، ص ١٩_٣١.

هذه الرواية التي اعتمد عليها الرصافيّ لا تؤكّد زعمه أنّ النبيّ (ص) كان يعرف القراءة والكتابة قبل الدعوة، لأنّ الحدث المرويّ قد وقع بعد نزول الدعوة، وبعد أن حدثت معجزة القراءة والكتابة حين أمر الله عزّ وجلّ النبيّ بالقراءة.. وعلى هذه الرواية اعتمد ابن خلدون حين تكلّم على صلح الحديبيّة، وعدّ ما جرى معجزة للنبيّ، حيث كتب وهو لا يعرف الكتابة[46]. وروى الرصافيّ أيضًا، نقلاً عن السيرة الحلبيّة، أنّ أبا الوليد الباجي المالكي تمسّك بظاهر قوله: "فكتب"، فذهب إلى أنّ رسول الله كتب بيده فشنّع عليه علماء الأندلس في زمانه بأنّ هذا مخالفٌ للقرآن، فناظرهم واستظهر عليهم بأنّ هذا لا ينافي القرآن وهو قوله: { مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }.[47]

لأنّ هذا النفيّ مقيّدٌ بما قبل ورود القرآن، وأمّا بعد أن تحقّقت أمّيته وتقرّرت بذلك معجزته، فلا مانع من أن يعرف الكتابة من غير معلّم، فتكون معجزة أخرى ولا يخرجه ذلك عن كونه أمّيًا[48]، ويعلّق الرصافي على هذا الكلام بقوله: " لا حاجة إلى هذا التكلّف من أبي الوليد ولا إلى ذلك التأويل من غيره، إنّ محمّدًا كان قبل ورود القرآن أي قبل النبوّة يقرأ ويكتب، ولكنّه كان يكتم ذلك، ولا يتظاهر به ولا يدّعيه ولا يتعاطاه، ولم يكن أحدٌ يعرف ذلك منه سوى عمّه العبّاس... وإذا كان محمّد لا يتظاهر بالكتابة ولا يتعاطاها قبل النبوّة، وإن كان يُحسنها فكتابتُه الكتابَ بيده يوم الحديبية لا يُنافي ما جاء في القرآن من قوله: { وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك..} لأنّ النفيَ الوارد في هذه الآية إنما هو بالنظر إلى الواقع، والواقع هو أنّه لم يتفق له أن كتب شيئًا قبل النبوّة وإن كان يعرف الكتابة، ولا يلزم من معرفة الكتابة وقوعها .[49]

ونقل من السيرة الحلبية أيضًا، أحاديث أخرى تشير إلى معرفة النبيّ بسيرة الأنبياء السابقين، علمًا أنّ الأحاديث نفسها تؤكّد أنّ هذه المعرفة، كانت بعد الدعوة وليس قبلها: منها حديثٌ يقول: لمّا وُلد الحسن بن عليّ بن أبي طالب جاء النبيّ (ص) وقال: أروني ابني ما

---

[46] المقدّمة، ص ٤٣٩و ٢٣٢.
[47] العنكبوت/٤٨
[48] الرصافي، ص ١٦٨، نقلاً عن السيرة الحلبيّة ج٣، ص ٢١.
[49] م.ن، ص ١٦٩.

سمّيتموه؟ فقال علي (ع) سمّيته حربًا، قال: هو حسن، ولمّا وُلد الحسين جاء أيضًا، وقال ما سمّيتموه؟ قالوا: حربًا، قال: بل اسمه حسين، فلما وُلد الثالث، جاء أيضًا، فقال أروني ابني ما سمّيتموه؟ قال عليّ: سمّيته حربًا، قال:بل هو محسن، ثم قال: إنّي سمّيتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر. يقول الرصافي تعليقًا على الرواية: وبهذا كانت منزلة أبناء عليّ كمنزلة أبناء هارون في اليهود، فمن أين عرف محمد أسماء ولد هارون لو لم يكن يقرأ الكتب القديمة؟"[50] وهذا القول تشكيك بقضيّة الوحي من أساسها، وإن كانت الرواية نفسها غير دقيقة لورود اسم محسن فيها، والمعروف المسلّم به أنّ المحسن لم يولد بل أسقطته السيدة الزهراء عليها السلام قبل اكتمال نموّه.

وأورد الرصافيّ كذلك روايات أخرى ليُثبت فيها معرفة النبيّ بتاريخ اليهود قبل نزول الدعوة، وأنّ القصص القرآنيّ ليس وحيًا، بل هو خلاصة معرفة النبيّ (ص) بتاريخ اليهود من خلال الكتب التي قرأها قبل نزول الوحي.

ردًّا على الذين قالوا إنّ النبيّ (ص) كان يحسن القراءة والكتابة قبل البعثة: يقول القرآن: { وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} .[51]

وهذه الآية الشريفة تزيل أيّ ريب أو شبهة يمكن أن تُثار حول نبوّة نبيّه الأكرم (ص) وتتأثّر بها نفوس الضعفاء، لا سيّما أولئك الذين قالوا في عصره وبعد عصره إنّه قد قرأ كتب السابقين على يد بعض أهل الكتاب، وتعلّم منهم وأخذ عنهم. فإذا تحقّق لدى الناس أنه لم يقرأ قبل بعثته عن أحد، فإذا جاء بهذا الدين وصار يعرف القراءة والكتابة بصورة إعجازيّة، من دون معلّم، فإن ذلك يضطّرهم إلى الإيمان والتصديق به حين يبعثه الله رسولاً نبيًّا، ويرونه قد أصبح عارفًا بالقراءة والكتابة، وبكلّ هذه العلوم والتشريعات والمعارف، التي يعجز البشر عن نيلها، وأساسًا، لم ترِد في كتب الأوّلين [المقصود كتب اليهود والنصارى].

[50] م.ن، ص 170- 171- 172.
[51] العنكبوت/ 48.

"ومن الواضح بالنسبة إلى الآية أن القراءة والكتابة لا تقصد لذاتها، وإنّما هي من العلوم الآليّة التي يكون القصد إليها للتوصل إلى غيرها، وهو نيل المعارف من طريقها؛ فإذا كانت المعارف والعلوم حاضرة لدى الرسول (ص) ويراها رأيَ العين، وهو يخبرهم بها، ويرون صدقه بصدقها فإنّ البحث عن وسيلة أخرى عاجزة عن إحضارها لديه، وعن إراءتها له. بل هي توجِد له حالة تخيّل وتصوّر لا أكثر"[52]

ومعاصرو النبيّ كانوا يعرفون أنّه لم يتعلّم القراءة والكتابة عند أحد قبل أن يُبعث، وأنه لم يكن يقرأ كتبًا، ولا كتب شيئًا منها أو عنها؛ ثم بعثه الله نبيًّا فيُفاجئهم بعلوم الأوّلين والآخرين، وهو لم يطّلع على كتب أحد؛ ويفاجئهم بأنّه في اللحظة نفسها قد أصبح يعرف القراءة والكتابة.. فطريق حصوله على المعارف والعلوم منحصر بالطريق الغيبيّ والوحي، وكان هذا الأمر من أظهر الشواهد على نبوّته واتصاله بالغيب.

وكما أنّ هنالك من استدلّ بالروايات ليقول إنّ النبيّ كان يعرف القراءة والكتابة، وإنّه قد قرأ التوراة والإنجيل، وأخذ منهما، هنالك من ادّعى أيضًا، استنادًا إلى الروايات أنّه صلّى الله عليه وآله وسلم قد ظلّ أمّيًّا حتى بعد البعثة، وبعد أن أمره جبريل بالقراءة، والواقعة نفسها أي قصّة ما جرى في الحديبيّة، عدّها بعضهم دليلاً على استمرار أميّة الرسول (ص) على أساس أنّه طلب إلى عليّ أن يمحوَ وصف "رسول الله" من الكتاب فلم يرضَ بذلك، فقال الرسول (ص) ضع يدي عليها فوضعها، فمحاها (ص) بيده[53]. وهذا الرأي متهافتٌ ينقضه قول الله عزّ وجلّ إنّه بعث إلى الأمّيّين رسولًا منهم ليعلّمهم ويزكّيهم.وعن الشيخ الطوسي أنّه قال: " والنبيّ عليه وآله السلام . عندنا . كان يحسن الكتابة بعد النبوّة، وإنّما لم يُحسنها قبل البعثة " .[54]

---

[52] مرتضى، السيد جعفر، مختصر مفيد، ج1، ص12- 13.

[53] مرتضى جعفر، مختصر مفيد، ص ١٧ نقلاً عن كشف الغمّة للأربلي، ج١، ص ٢١٠، والإرشاد للمفيد، ج١، ص ١٢٠، وأعلام الورى، ص ٩٧، وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٥٧ و٣٥٩ و٣٦٣.

[54] م.ن، نقلاً عن المبسوط، ج٨، ص ١٢٠، وتفسير البيان، ج٨، ص ٢١٦.

من المؤكّد أنّ النبيّ بات يُحسن القراءة والكتابة بعد البعثة، وقد قال الله في محكم كتابه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }[55]. فكيف يعلّمهم ما لا يُحسن؟

النتيجة:

لقد كان النبيّ قبل البعثة لا يحسن القراءة والكتابة، كأبناء جِلدته، وإن كان جدلاً قد عرف شيئًا منها، ما كان هذا القليل المتاح يمكّنه من قراءة كتب السابقين، هذا إن كانت تلك الكتب متوافرةً في أيدي الناس. لقد قرأ النبيّ وكَتبَ بعد الدعوة وهذه هي معجزته، لقد تعلّم القراءة والكتابة من دون معلّم، ومعاصرو الرسول كانوا يعرفون أنّه لم يتعلم القراءة والكتابة عند أحدٍ قبل أن يُبعث، وأنّه لم يكن يقرأ كتبًا ولا كتب شيئًا منها أو عنها، ثمّ بُعث نبيًّا ففاجأهم بعلوم الأوّلين والآخِرين، وطريق حصوله على المعارف والعلوم منحصرٌ بالطريق الغيبيّ والوحي، وهذا الأمر من أظهر الشواهد على نبوّته واتصاله بالغيب. فضلًا عن أنّ ما أتى به من معارف وأحكام وتشريعات في القرآن، لا نظير أو عديل أو مثيل لها في معتقدات السابقين واللاحقين.

وأمّا لفظة الأميّ فمفرد الأمّيين التي أطلقها أهل الكتاب وبالتحديد اليهود على العرب بوصفهم من غير اليهود، فضلاً عن أنّهم من أبناء الأمَة ولا كتاب لهم.

[55] الجمعة/2.

المصادر والمراجع

فضلاً عن القرآن الكريم.

1. ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدّمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، لا تا.
2. ابن منظور، لسان العرب، ط دار صادر، بيروت ، لا ت
3. ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك، السيرة النبويّة، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٥م.
4. داود، محمد محمد، المعجم الموسوعي للتعبير الاصطلاحي في اللغة العربيّة، ط١، القاهرة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
5. الرصافي، معروف، كتاب الشخصيّة المحمّديّة أو حل اللغز المقدّس، منشورات الجمل، ط١، ألمانيا، ٢٠٠٢.
6. الزرقا، الشيخ مصطفى، مقدمة كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، ط٢، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨م.
7. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدّرسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، لا تا.
8. علي، جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام،
9. غندور، علي، كنوز الذاكرة، ط١، ، لبنان، بيروت، ٢٠١٤؛ ط٢، دار أعراف للطباعة والنشر ،سوريا، طرطوس٢٠٢١.
10. فضل الله، السيد محمد حسين، تفسير من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت،١٤١٩هـ١٩٩٨م
11. قطب، سيّد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ٣٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

12. الكتاب المقدس بعهديه، ترجمة الآباء اليسوعيّين، وتنقيح الشيخ إبراهيم اليازجي، لا تا.
13. لواساني، أحمد، نظرات جديدة في تاريخ الأدب، ط1، ١٩٧١. ط2، ١٩٨٨م، منشورات لواسان، بيروت . لبنان .
14. مرتضى، جعفر، مختصر مفيد، المركز الإسلامي للدراسات، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
15. مرتضى ، جعفر،الصحيح في سيرة النبيّ الأعظم، دار الحديث للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م.
16. مغنية، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٨١م.
17. مطهري، الشهيد مرتضى، خدمات متقابل إسلام وإيران (الإسلام وإيران الخدمات المتبادلة) ط٨، ١٩٩٦م .
18. الصحيح في سيرة النبيّ الأعظم، دار الحديث للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م.
19. ياسين، خليل، محمد عند علماء الغرب، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٧.

ياقوت الحموي، الشيخ شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،